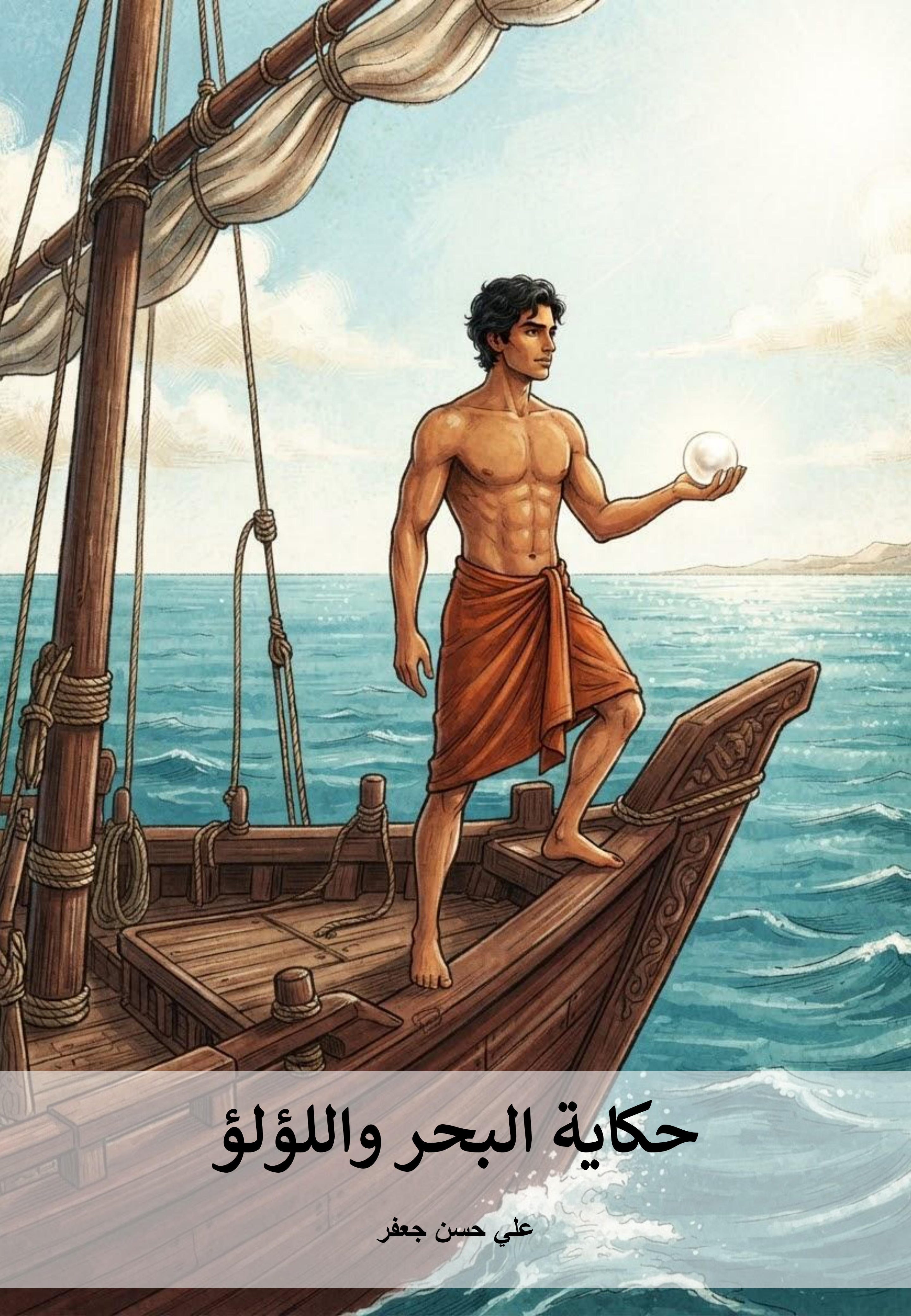


حكاية البحر واللؤلؤ

علي حسن جعفر

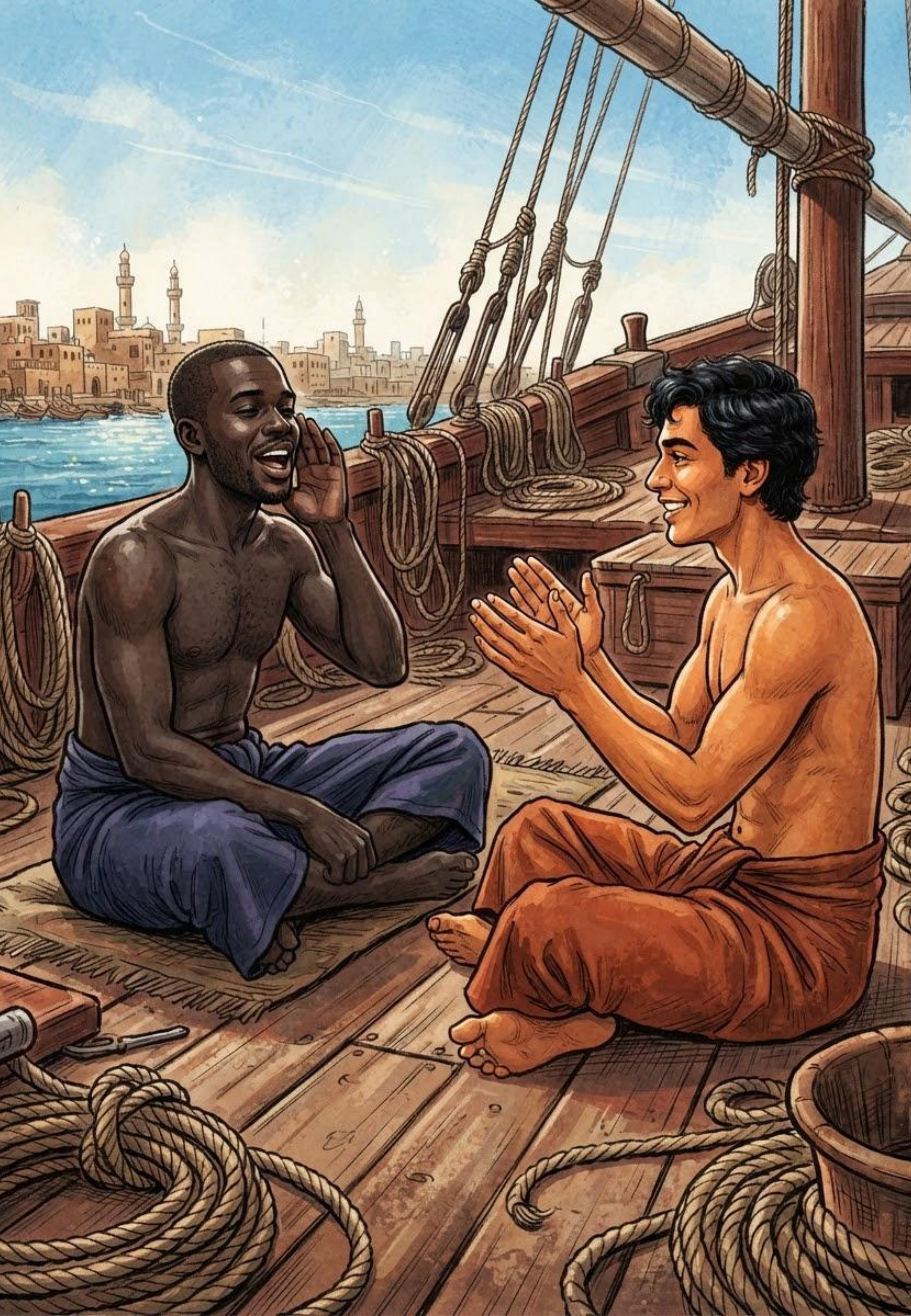
في قرية كرانة، حيث تعانق أشجار النخيل الباسقة مياه الخليج الزرقاء، وقف "الحاج إبراهيم" يودع أهل القرية عند الشاطئ. لم تكن هذه الرحلة مجرد سعي للرزق، بل كانت اختباراً للرجولة والصبر في مواجهة أهوال البحر. كان الحاج إبراهيم، بجسده الفتي وعزيمته التي لا تلين، يدرك أن خلف هذا الأفق الأزرق تكمن حكايات من العناء والبطولة، وأحلام لآلئ قد تغير مسار حياته إلى الأبد.



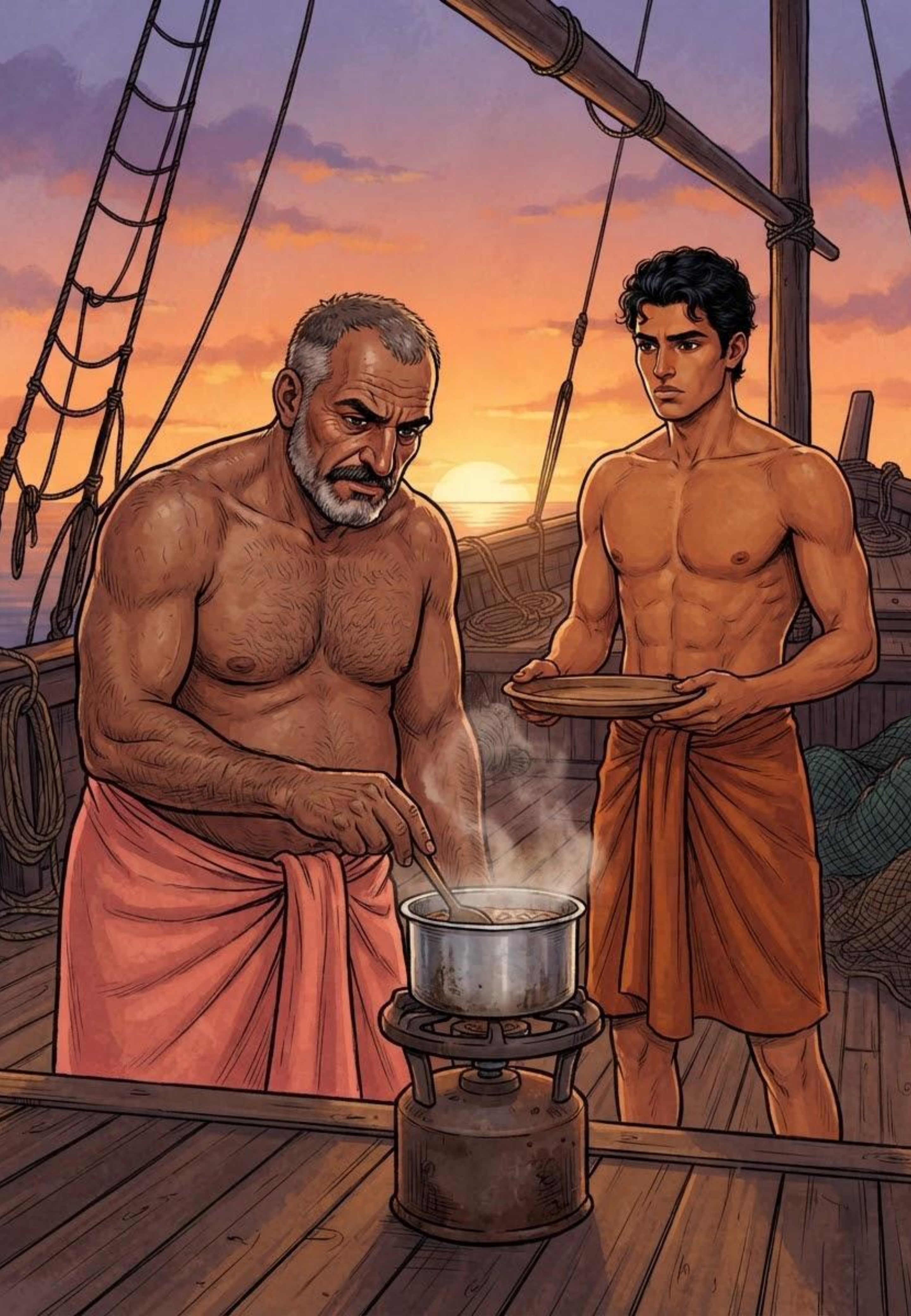
مع إعلان الانطلاق، اعتلى الحاج إبراهيم سطح السفينة الخشبية، حيث كان "النوخذة الحاج عيسى" ينتظر اكتمال حضور رجاله. كان الحاج عيسى رجلاً صهرته الشمس والملح، وعيناه تحملان خارطة أعماق البحر. تبادل الحاج إبراهيم والنوخذة؛ نظرة تحمل عهد الالتزام والانضباط.حيث تتلاشى الفروق ولا يبقى سوى العمل الشاق والاعتماد المتبادل بين رجال نذروا أنفسهم للبحر.



وسط ضجيج العمل ، انطلق صوت "الحاج راشد" النهام، ليملأ أرجاء السفينة بأهازيج البحر الشجية. كان الحاج راشد يمتلك حنجرة ذهبية تبدد وحشة الغربة وتخفف من وطأة التعب. بدأ الحاج إبراهيم والبحارة يشاركونه الترديد الجماعي في تناغم عجيب، محولين كدحهم إلى ملحمة تعزز روح الجماعة. كانت الأهازيج والأغاني الشعبية هي الوقود الذي يحرك الأجساد المتعبة تحت شمس الظهيرة الحارقة.



مع اقتراب مغيب الشمس، تصاعدت رائحة الطعام البسيط الشهي. كان النوخذة الحاج عيسى يشرف بنفسه على توزيع الطعام، بينما كان الحاج إبراهيم يساعد في تحضير وجبة العشاء المكونة من الأرز والقليل من السمك المملح. كانت الوجبات كافية فقط لمد الأجساد بالطاقة اللازمة لمواجهة يوم غدٍ، كان الرجال يتبادلون أحاديث مقتضبة تعكس بساطة حياتهم وعمق روابطهم.



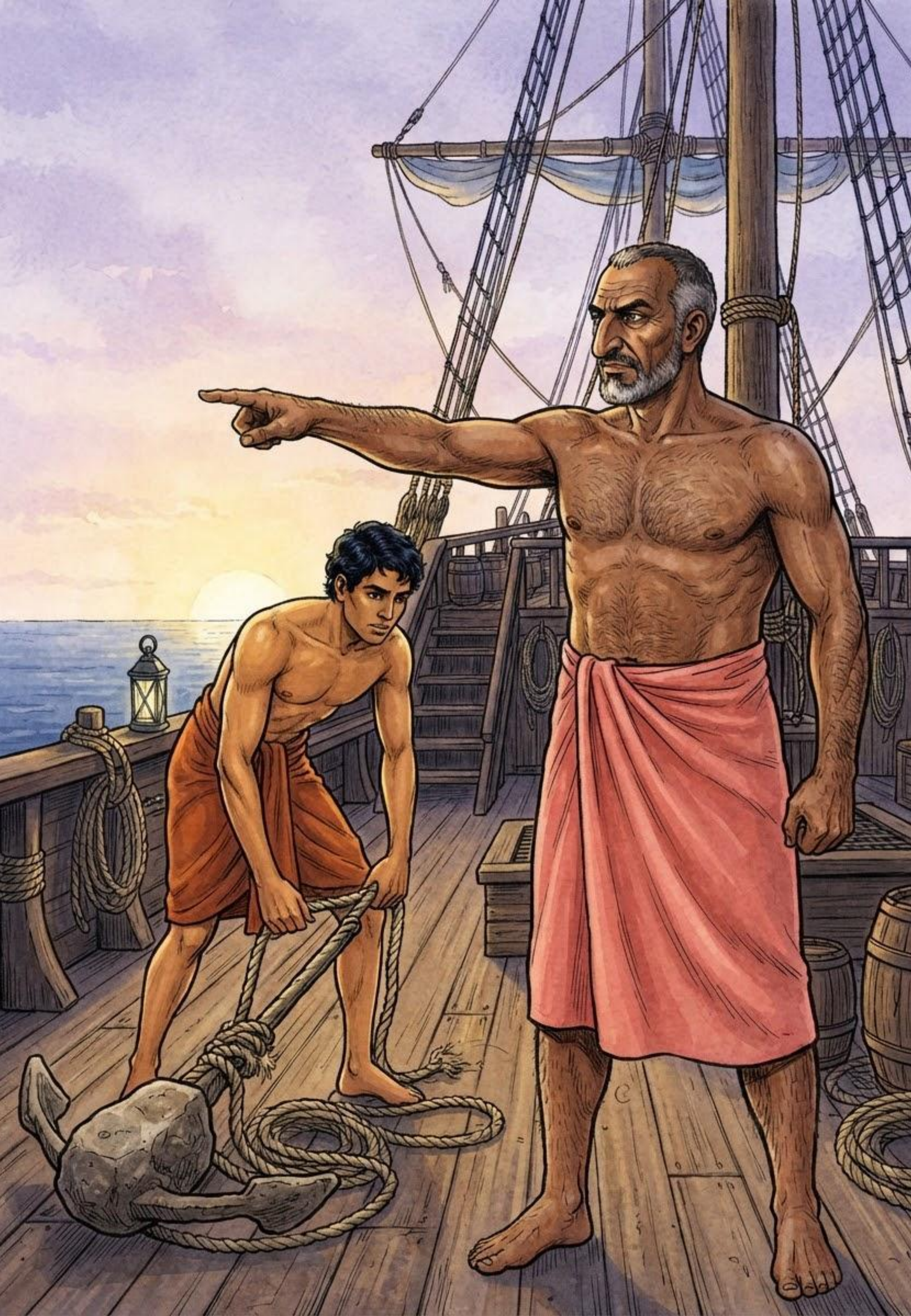
جلس البحارة في حلقة مستديرة حول طبق كبير واحد، يتقاسمون لقمة العيش في مشهد يجسد أسمى معاني الأخوة. الحاج إبراهيم و الحاج راشد كانا يتشاركان الطعام بصمت مشوب بالرضا، مستمتعين بنسيم المساء الذي بدأ يبرد الأجواء. في هذه العزلة الموحشة وسط الماء، كان هذا الطبق المشترك هو ما يربطهم ببعضهم البعض، ويذكرهم بأنهم جسد واحد في مواجهة أمواج البحر.



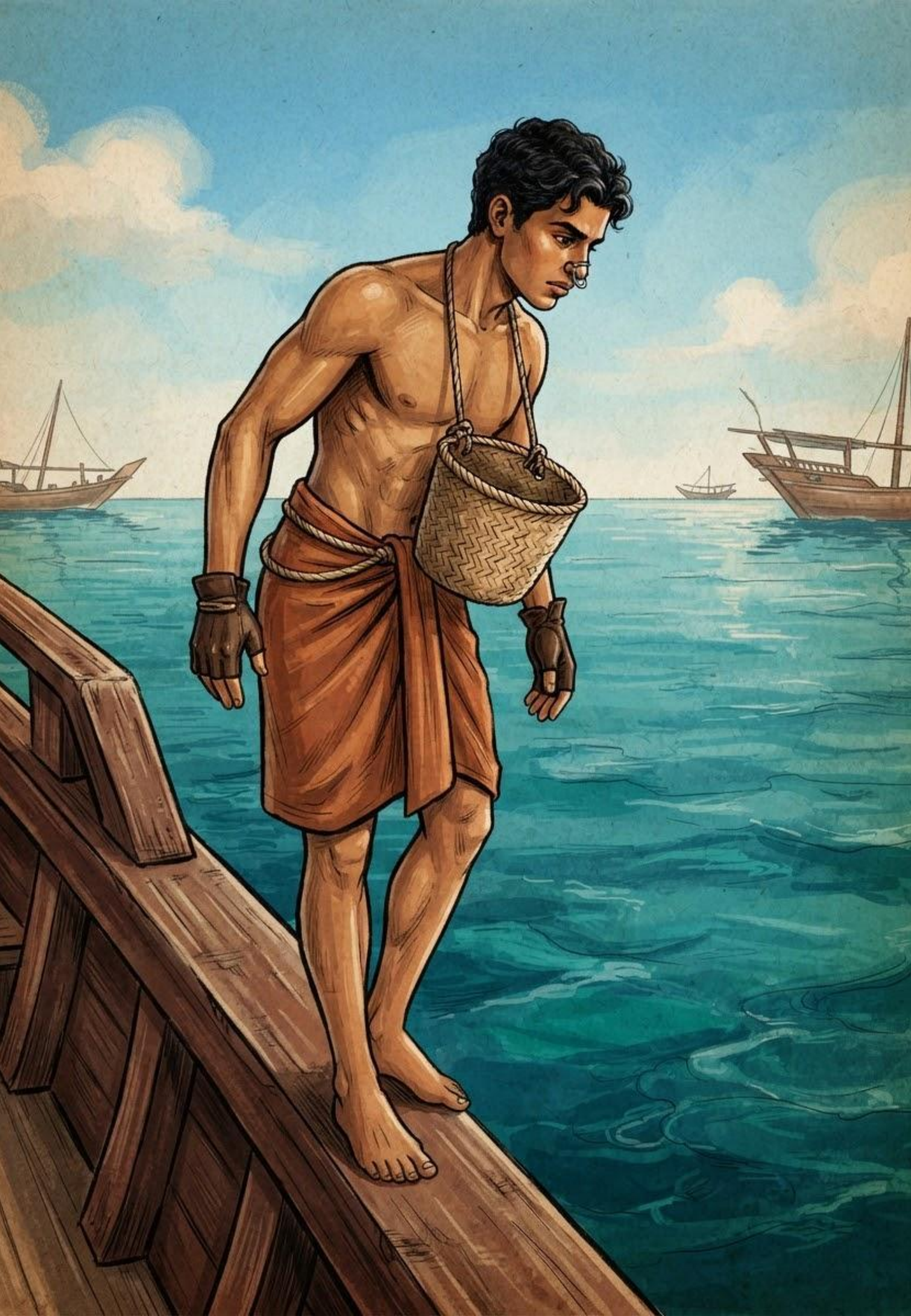
عندما حل الليل وتلألأ القمر في كبد السماء، اجتمع الرجال في جلسة هادئة. كان الغواص العجوز "الحاج علي بن صالح" يقص عليهم حكايات البحر وغدره، وعن أهوال العواصف وعن لآلئ "الدانة" التي لا يظفر بها إلا ذوو الحظ العظيم. استمع الحاج إبراهيم بإمعان، وكأن كلمات العجوز تزرع في قلبه الشجاعة والرهبة في آن واحد، بينما كان الحاج راشد يدندن بصوت خافت ينسجم مع خرير الماء.



لم يكد الفجر يشق عتمة الليل حتى دوت صيحة النوخذة الحاج عيسى: "حي على الصلاة!". انقشعت غشاوة النوم عن الأعين بسرعة البرق، وقام الحاج إبراهيم بهمة لا تعرف الكلل.حيث البحر في أهدأ حالاته قبل أن تشتد الحرارة. بدأ الحاج إبراهيم يجهز أدواته، يربط الحبال ويتفقد السلال، مستعداً للمواجهة الحقيقية مع القاع السحيق الذي يخبئ الرزق في جوف المحار.



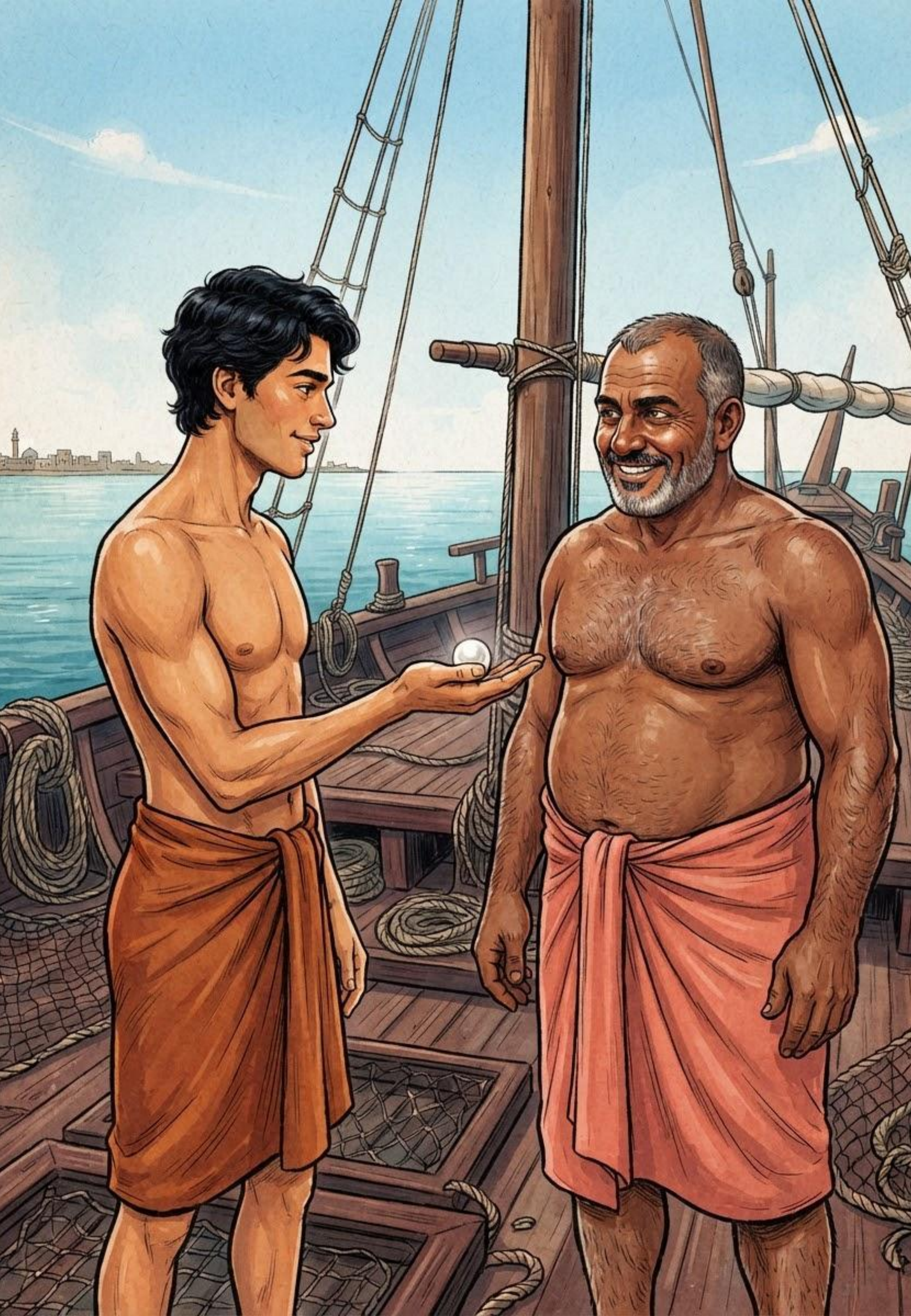
وقف الحاج إبراهيم على حافة السفينة، يضع "الفطام" على أنفه ليحبس أنفاسه، ويمسك بسلة "الديين" حول عنقه. كانت أصابعه المغطاة بـ "الخبط" الجلدي تقبض على حبل الغوص بقوة. وبإشارة من النوخذة، غاص الحاج إبراهيم في الماء، تاركاً عالم الضوء خلفه لينغمس في عالم آخر يسكنه الصمت والضغط والجمال الغامض.



تحت الماء، تحول الحاج إبراهيم إلى كائن بحري يسبح بين الشعاب المرجانية بدقة وبراعة. كان يجمع المحار بسرعة قبل أن ينفد هواه، متجاهلاً ضغط الماء الذي يثقل صدره. كانت عيناه تبحثان بتركيز شديد عن تلك المحارة المميزة، بينما تسبح الأسماك الملونة حوله . في هذا القاع الصامت، كان الحاج إبراهيم يشعر بعظمة الخالق وبضآلة الإنسان أمام جبروت البحر وسخائه المخفي.



انتهت الرحلة و الحاج إبراهيم يمسك في كفه لؤلؤة "دانة"، تشع بريقاً يخطف الأبصار. تقدم نحو النوخذة الحاج عيسى الذي استقبل الخبر بابتسامة فخر. وعاد الرجال يحملون في نفوسهم دروساً في الجلد والاعتماد على النفس. وبينما كانت السفينة تشق طريق العودة إلى كرانة، كان الحاج إبراهيم ينظر إلى البحر بامتنان، فقد منحه هذا البحر روح الغواص الحقيقي.



النهاية

حكاية البحر واللؤلؤ

علي حسن جعفر

الطبعة الأولى - ٢٠٢٦م